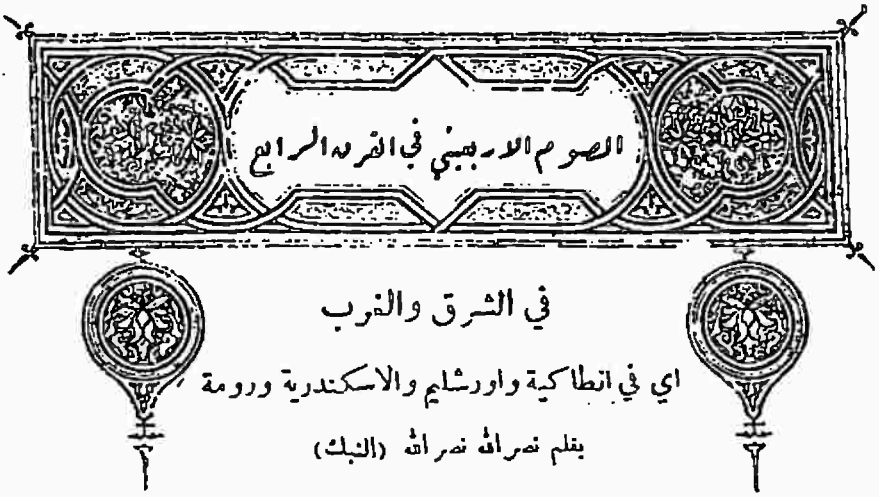

ثالثاً: كيفية ممارسة الصوم

ان تباين الكنائس المختلفة في ممارسة الصوم كان اعظم منه في عدد الايام. وعليه يجب ان نبذل قصارى الجهد لبيان كيفية ممارسة الصوم عند كل من هذه الكنائس، تابعين الخطة التي رسمناها حتى الآن.

وقبل الشروع في هذه الناحية من الموضوع، يحسن بنا القول ان الكنائس التي كانت تدمج الصوم الفصحي بالصوم الاربعيني، والتي كانت تفرز احدهما عن الآخر، كانت تمارس تقشفات اشد صرامة في الصوم الفصحي، ولا سيما اليومين الاخيرين منه اي الجمعة والسبت. وسبب ذلك انه لم يكن غير الصوم الفصحي في مطلع القرن الرابع (وهو يمتد الى يومين او اربعين ساعة او اكثر حسب الكنائس) وهي الايام التي اشار اليها المخلص في الانجيل: «ومتى ارتفع العروس عنهم فحينئذٍ يصومون».

وعليه وجب علينا في هذا الدرس ان نذكر التقشفات المتممة في الصوم الاربعيني وفي الصوم الفصحي في كل كنيسة.

والتقشفات التي تخص الطعام على نوعين: منها الامساك عن الطعام الى وقت محدود من النهار، ومنها الامتناع عن اكل بعض الاطعمة.

٥ – في انطاكية

كان يُقتصر على وجبة واحدة في النهار ، وحسب عدة نصوص من الذهبي الفم تكون هذه الوجبة عند المساء.[١] . لكن *La Didascalie* ينصّ على ان الصوم ليس الزاميًا الا الى الساعة التاسعة اي الثالثة بعد الظهر[٢] . على ان هذا التصريح لا ينقض من شهادة الذهبي الفم :[٣] لان موضع تأليف هذا الكتاب لا يُعرف بالتحقيق، وهل هو يتكلم عن عوائد انطاكية او عن غيرها ، فجلّ ما نعلمه ان كاتبه كان اسقف بلدة كبيرة من سورية العليا[٤] .٢٠ لإمكان تبدل العوائد على مرور الزمن . واما تصريح « الدساتير الرسولية »[٥] فلا يسعنا ان نتحقق منه ، حسب ظننا ، ساعة الوجبة المحددة ، اقله الذين كان الصوم عليهم اجباريًا لانه غير واضح.

اما الصوم المتبع في جمعة الآلام (الصوم الفصحي) فلم يقع فيه شيء من التبدل حتى الخميس بعد الظهر، وفي اليومين الاخيرين منه، فالمشهور ان المسيحيين كانوا يبالغون في التقشفات ، فيمتنعون عن كل طعام من مساء الخميس حتى فجر الاحد. وكذلك يتبيّن جليًا من نصّ « الدساتير الرسولية » : « الجمعة والسبت تمتنعون بتاتًا عن الطعام مواصلين الصوم حتى صياح الديك من ليلة الاحد »[٥] ومن *La Didascalie* : « الجمعة والسبت تصومون صومًا كاملًا ولا تذوقون طعامًا البتة . اجتمعوا كلكم ، لا تتسلموا للنوم ، احيوا الليل في الصلوات والتضرعات وقراءة الانبياء والانجيل والمزامير بخوف ورعدة وتوسلات غير

(١ *Homel. IV ad Pop. Ant.* ; Bareille, II vol. p. 53 — *Homel. IX ad Pop. Ant.* 6 ; *P. G.* t. XLIX col. 68 — *Homel. X sur la Pénitence* 1 ; Bareille II vol. p. 274. — Cf. S' Basile, *De Jejunio, homel. I*, 10 ; *P. G.* t. XXXI col. 181.

(٢ *Op. cit.* p. 120.

(٣ Cf. Tixeront, *Précis de Patrologie*, p. 123.

(٤ Lib. V, cap. 18 ; Pitra, *op. cit.* p. 288.

(٥ Lib. V, cap. XVIII, XIX ; Pitra, *op. cit.* p. 288 — Lib. V, cap. XV ; Pitra, *op. cit.* p. 284.

منقطعة الى الساعة الثالثة من الليل الذي يلي السبت، فحينئذٍ تنهون صومكم»[١] وهذا القول يعاد مراراً في الصفحات التالية.

ويلوح لنا ان الصومين الاربعيني والفصحي في الكنيسة الانطاكية كانا يمارسان بصرامة متماثلة من جهة القطاعة. ففي الجمعة المقدسة، كان المسيحيون ينقطعون عن كل مأكول سوى الخبز والفواكه اليابسة وهذا ما يدعى (*Xérophagie*)[٢] والاطعمة المحظورة هي اللحم، والسمك، والبيض، والحليب، والسمن، والجبن، والخمر، والزيت. واننا نستدلّ من نصوص يوحنا فم الذهب ان الانطاكيين في عصره كانوا يمتنعون عن جميع هذه الاطعمة: لحم الطيور والاسماك (*Homel. III ad Pop. Ant.* 5, *P.G.t. XLIX*, col. 53) ولحم الانعام (*P. G. t. XLIX*, col. 53) «وبكلمة لحم، يقول ثاكندار، يفهم الآباء عادة كل ما يؤلف الحياة الحيوانية وكل ما يخرج منها. فالبيض والحليب وكل ما يُستخرج منه كانت ولا بد مشمولة تحت هذه التسمية»[٣]. لتطبق هذا المبدأ على الكنيسة الانطاكية. وحسب قول الذهبي الفم ان الانطاكيين كانوا يمتنعون ايضاً عن الخمر والزيت[٤].

وهذا النظام هو الذي كان مرعيًّا عند عامة الانطاكيين. مع ذلك كان يوجد من يقتصرون على تناول الخبز والماء فقط[٥].

٢ – في اورشليم

ليس لنا شهادات صريحة تبين الوقت الذي كان فيه مسيحيو اورشليم يتناولون وجبة الصوم فالقديس ابيفانيوس يقول[٦] ان الصوم لا ينتهي الا عند

(١) *Didascalie* p. 120.

(٢) *Const. Apost.* Lib. V, c. XVIII ; Pitra, *op. cit.* p. 288. القديس ابيفانيوس يفهم *xérophagie* بالامتناع عن كل مأكول ما عدا الخبز والملح والماء (*Haeres. L. III. Expos. Fidei* c. XXII ; *P. G.* t. XLII col. 828)

(٣) *Dict. Théol. Cath.* art. Carême, col. 1733.

(٤) *Homel. IV, ad Pop. Ant.* 6 ; *P. G.* t. XLIX, col 68. – *Homel.* 6e *sur la pénitence* ; Bareille p. 274.

(٥) S. J. Chrys. : *Homel. IV, ad Pop. Ant.* 6 ; *P. G.* t. XLIX, col. 68.

(٦) *Exp. Fidei*, c. XXIII, *P. G.* t. XLII, col. 829.

الماء . ولكن لا ندري هل هو يتكلم عن عادة وطنه « لانه فلسطيني نشأ في فلسطين وسُقف على قبرس » او يخبر عمّا كان يجري في ابرشيته . واتيريا لا تشير في سياحتها الى هذا الموضوع. نعم انها عند ما تتكلم عن « stations » اي صوم الاربعاء والجمعة ، تقول ان الصوم كان ينتهي الساعة التاسعة [1] . افيمكننا ان نستنتج ان شريعة الصوم الاربعيني هكذا كانت ؟ لا يبدو لنا ذلك لانه ، كما يقول العلامة دوشين« ان صيامات « Stations » لم تكن من الصيامات الكبرى ولم يُجاوز فيها الساعة التاسعة » [2].

والكنيسة الاورشليمية كالكنيسة الانطاكية كانت تنهي الصوم الفصحي الاحد صباحاً [3].

وبخصوص القطاعة ، كان جارياً حسب قول القديس كيرلس الامتناع عن اللحم [4] ، ومن ثمّ عن البيض والحليب وكل ما يُستخرج منه ، حسب التنبيه الوارد سابقاً . واخيراً عن الخمر [5] . وان اتيريا في سياحتها تشير الى القطاعة ، والقطاعة التي تتكلم عنها هي التي يعمل بها فئة من المسيحيين المغالين بالتقشفات والذين يدعون Apotactites ، لا عامة المسيحيين ولذا لا يمكننا ان نجعلها عادة مألوفة عند الجميع . وهذه القطاعة كانت تقتصر على الطحين والماء وتمنع الخبز والزيت والفواكه [6] .

٣ – في الاسكندرية وروية

يتعذّر علينا التبسط في التفاصيل الدقيقة عن كيفية الصوم والقطاعة في

(١) Cf. Dom Cabrol : *Les Eglises de Jérusalem*, p. 135.

(٢) Cf. *Les Origines du culte Chrétien* p. 219.

(٣) S. Cyrille de Jérus. *Catech. XVIII*, n. 17 ; *P. G.* t. XXXIII, col. 1037.

(٤) *Catech. IV* ; *P. G.* t. XXXIII, col. 1010.

(٥) *Catech. IV* ; *P. G.* t. XXXIII, col. 490. لكن منع شرب الخمر على الطعام حسب قول فونك (Funck) كان امراً مندوباً لا واجباً ، وبهذا يفسّر اقاويل الآباء كالقديس كيرلس الاورشليمي والقديس باسيليوس وغيرهم.

(٦) Cf. Mgr Duchesne : *Les Origines*. p. 471-482. – Cabrol, *Les Eglises de Jérusalem*, p. 138.

حاتين الكنيستين ، اذ ليس لدينا بيانات اكيدة مأخوذة من القرن الرابع ولربما يأتينا بعض المتبحرين في علم التاريخ الكنسي فيميط النقاب عن هذه الحقيقة. لكننا نستطيع القول ان القطاعة كانت تتناول لحوم الانعام واصناف الحليب.

اما لحوم الطيور والاسماك فلا يمكننا ان نبت بنهما ، لان الكثيرين كانوا ، حسب قول سقراط ، ياكلونها [1] ، لان لحومها لا تعتبر كلحوم سائر الحيوانات ملغية الصوم. وذلك لان السمك يعيش في الماء ، والطيور ، كما جاء في سفر التكوين ، اصلها مائي.

وايضاً لا يمكننا ان نحدد ساعة تناول وجبة الصوم اهي التاسعة ام بعد غروب الشمس. فان القديس ابيفانيوس يقول: « ان ستة ايام الآلام تسمى *Xérophagie*. لان جميع الشعوب تقتصر فيها على المآكل الجافة ولا يؤكل الا عند المساء [2]... » لكن تصريح هذا القديس شامل كنائس كثيرة فلا يسعنا تخصيصه باحداها.

على انه يمكننا الجزم بامتناع مسيحي رومة عن الطعام الجمعة والسبت حتى فجر الاحد ، حسب نص ديونيسيوس رئيس اساقفة الاسكندرية في رسالته الى باسيليد [3]. وبخلاف ذلك في الكنيسة الاسكندرية كان الصوم ينتهي في صلاة غروب السبت العظيم حسب تصريح القديس اثناسيوس [4].

لقد عرفنا بوجه عام عوائد كل كنيسة ولم نتكلم عن التقشفات الخاصة التي كان يمارسها بعض فئات من المؤمنين مثل الـ « Hebdomadiers » الذين تكلمت عنهم اتيريا [5] والذين كانوا يصومون كل ايام الاسبوع دون طعام البتة . والـ « Apotactites » الاولى كانوا في مدار السنة كلهما لا يتناولون الا وجبة في النهار ، وذلك عندما يأكلون. ومن كان من الاولين لا يستطيع صوم الاسبوع بكامله كانوا يفطرون يوم الخميس ، والبعض يأكلون كل

(١ *H. E.* V, 22.

(٢ *Exp. Fidei*, c. XXII, *P. G.* t. XLII, col. 828.

(٣ Cf. Pitra, *op. cit.* P. 541. وهذا التصريح من ديونيسيوس يرينا سبب اختلاف المؤمنين في اتمامهم الصوم السبت مساء او الاحد صباحاً ، وذلك وقت قيامة المسيح . فالبعض كانوا يرتأون ان المخلص قام بعد غروب شمس السبت ، وغيرهم يعتقدون انه عند غلس الاحد.

(٤ *Lettres festales* ; *P. G.* t. XXVI, col. 1389.

(٥ Cf. *Les Origines du culte Chrétien*, p. 481-482.

يومين[١] . وكان كثير من هؤلاء الابطال لا في اورشليم فحسب ، بل في كل كنيسة . فالقديس ارغطينوس يخبرنا عن شخص طوى الاربعينية بكاملها دون طعام[٢] . وكذلك القديس ايرونيموس[٣] والقديس ابيفانيوس[٤] ، والقديس يوحنا فم الذهب[٥] .

وما عدا هذه التقشفات التي اشرنا اليها بما يتعلق بالطعام ، يوجد غيرها كانت مألوفة بين المسيحيين عامة — ويقولنا عامة غير بعض فئات كالموعوظين الذين لهم عوائد خاصة.

فمن هذه الاعمال نخص بالذكر عفة المتزوجين ، والاحجام عن الاعراس ، ومنع المآدب والولائم ، والانقطاع عن الالعاب العامة وحضور المراسح ، والتوقف عن متابعة الدعاوي الجنائية ، والحكم بالموت.

فعفة المتزوجين قد حرّض عليها القديس تيموثاوس الاسكندري[٦] والقديس باسيليوس[٧] والقديس ارغطينوس[٨] . اما الاعراس فقد نهى عن اقامتها مجمع اللاذقية Laodicée في قانونه الثاني والخمسين . وفي ٢٧ مارس سنة ٣٨٠ اذاع غراسيانوس وثاودوسيوس[٩] شريعة يأمران بها بتأجيل اجراء الدعاوي الجنائية في الاربعينية السابقة للفصح[١٠] .

والى هذه الاعمال يمكننا ان نضيف غيرها كالعزلة والصمت التام ، واسعاف البائسين ، والاعمال الصالحة والصلوات[١١] .

بقي لنا كلام وجيز عما يفسخ الصوم وعن الشخص المكلف به . فنجتزئ

(١) Cf. Dom Cabrol. *Les Eglises de Jérusalem* p. 135-136.
(٢) *Epist. XXXVI, ad Casulanum* 19 ; *P. L.* t. XXXIII, col. 1481.
(٣) *Expositio Fidei*, 22. (٤) *Epist. XXIV*, n° 4.
(٥) *Homel. IV ad Pop. Antioch.*, Bareille II, p. 53.
(٦) *Rép. Canoniques* ; *rép. XXXIV*, Pitra, *op. cit.* p. 637.
(٧) *De Jejunio, homel.* 1 ; *P. G.* t. XXXI, col. 184.
(٨) *Serm. CV, CVIII, CIX, CX.*
(٩) *Cod. Theod. L. IX*, titr t. XXXV, leg. 4.
(١٠) Cf. *Dict. Archéol. et Liturg.*, art. Carême, par Vacandard col. 2151-2152.
(١١) Cf. *Dict. Arch. et Liturg.*, art. Jeûnes par Dom Cabrol, col. 2491

بايراد ملخص ما جاء في معجم العاديات والليتورجية المسيحية.

يقول كابرول ان الصوم هو الامتناع عن كل طعام. ففي احقاب الكنيسة الاولى كان الصوم يُفهم بالاطلاق ويقتضي الامتناع عن كل شراب حتى عن الماء غالباً . ويجب ان نتذكر ان الذبيحة الالهية كانت تقام ابان الصوم عند المساء ، فالذين يتناولون كانوا ينقطعون عن كل طعام الى هذا الوقت . ولدينا نصوص تبرهن على انه يجب الامتناع عن كل مشروب ، كما عن كل مأكول ، في الاربعينية وايام الصيامات الكبرى[1] « وكانت صرامة الصوم والقطاعة في الاجيال الاولى ، على قول ڤاكندار ، شديدة حتى اننا نستطيع ان نتساءل هل كان جميع المؤمنين يستطيعون احتمالها . فبدئيًا كانت شريعة ملزمة كل شخص معتد، وفي القديم لم يُعفَ منها لا العملة ولا الشيوخ ولا الاولاد اقله الاحداث[2] .» هذا مبدئيًا، لكن عمليًا كان يوجد بعض التفسيحات كما يتبين من بعض نصوص قول الدساتير الرسولية : « الجمعة والسبت لا تتناولوا طعاماً البتة . . . وان عجز البعض عن تحمل هذه المحنة فليصوموا اقله من السبت حتى الاحد .»[3] وكذلك يقول القديس تيوناوس الاسكندري مستندًا الى هذا المبدأ ان الصوم رسم لتذليل الجسد[4] فعندما يكون الجسد مذللًا في المرض فلا حاجة به الى الصوم والقطاعة . وهكذا نرى هذا الاسقف القديس يعفي الشيوخ (Rép. 33°, Pitra, op cit p.637) والمرضى (Rép, 10°, Pitra, p. 632) والنساء المرضعات (Rép. 31°, Pitra, p. 631) وجميع الذين يتعذر عليهم الصوم (Rép. 8°, Pitra, 31°, op. cit p. 637)

هذا ما تمكنا من الوقوف عليه في هذا الموضوع . وليعذرنا القارئ ان لم نستطع ايفاءه حقه ، وذلك لعدم وجود مصادر كافية لدينا توقفنا على جميع اطراف هذا البحث الدقيق الواسع .

(١) Cf. *Dict. Arch. et Liturg.*, art. Jeûnes, par Dom Cabrol, col. 2485.

(٢) Cf. *Dict. Arch. et Liturg.*, art. Carême, par Vacandard, col. 2151.

(٣) *Const, Apost.*: *L. V, C. XVIII, XIX* ; Pitra, *op. cit* p. 288.

(٤) *Sa 8e réponse canonique.* Pitra, *op. cit* p. 631.